

والعملية، ومع ذلك مشارك للحيوانات فى الأغراض الشهوية والغضبية، بل أنزل رتبة و أضل سبيلا منها فى الدواعى النفسانية، و الميل الى الدنيا و الاخلاص الى الأرض، فان بقى على هذه الحالة التى هى بعينها سبب دخول الجحيم و غضب الجبار، أو نفسها - كما هو عند بعض - فكان على شفير جهنم، فاذا تنوّرت ذاته بالايمان اليقيني و المعارف اليمانية و العمل بمقتضاها فقد حصل له ما هو سبب دخول الجنان و مجاورة الرحمن أو عينها - كما هو عندهم - .

فمعنى هذه الآية و غيرها من النقول المذكورة هو ما ذكرنا، فانّ العبد لوخلى ساعة من توفيق الله تعالى لوقع فى الظلمات ممّا توجهه الشهوات و غيرها، فصار امداد لطفه و افاضة نوره أنا فأناً سبباً لدفع تلك الظلمات عنه، و بين الدفع و بين الرفع مشابهة، فبهذا الطريق يجوز استعمال الاخراج و الابعاد فى معنى الدفع و الرفع .

المقالة الثامنة عشرة

فى قوله سبحانه و تعالى : ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات﴾

و فيه مطالع :

المطلع الأول فى اللفظ

«الطاغوت» بلفظ الواحد والأولياء بلفظ الجمع، ليعلم أنّ الولاء والمحبة من قبل الكفار للطاغوت لا من قبله لهم، فلو كان من قبله لقال: «وليّهم الطاغوت» أو «الطاغوت وليّهم» وأمّا ما قرأه الحسن «أولياؤهم الطواغيت» واحتجّ بقوله تعالى بعده ﴿يخرجونهم من الظلمات الى النور﴾، فهو اسناد مخالف للمصاحف، على أنّه قد مرّ أنّ هذا اللفظ مفرد لا يجمع، و لهذا يقع فى موضع الجمع .

ومن الدلائل على ما حملناه - من كون الأولياء بمعنى المبني للمفعول بعد كون الطاغوت بمعنى الشيطان - قوله تعالى : ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنّ له لكم عدو مبين﴾ (البقرة: ٢) : (١٦٨) وقوله : ﴿إنّ الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾ (فاطر: ٣٥) : (٦)، فانّ كونه عدواً للإنسان جملة ينافى صيرورته ولياً و لو فى بعض الأوقات .

والمراد بالطاغوت هاهنا إما الشياطين - وهو قول ابن عباس - وقيل: رؤساء الضلالة^١ - عن مقاتل - وقيل: الأصنام. وقيل: المشتبهات النفسانية والأعراض الدنياوية. وقيل: النفس الأمارة بالسوء. ولكل وجه بل المرجع فيها واحد هو حب الدنيا لنقصان الجوهر وقصور الذات.

المطلع الثاني

[استدلال المعتزلة بهذه الآية على أن الكفر ليس بقضاء الله و ردها]

قد استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الكفر ليس بقضاء الله، لأنه أضافه الى الطاغوت.

والجواب: أن هذه الاضافة مجازية بالاتفاق، وخصوصاً على قول من يكون المراد به عنده الصنم كقوله تعالى: ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾ (ابراهيم: ١٤)، (٣٦)، فإذا كانت هذه الاضافة بالاتفاق مجازية بين الفرق فقد خرجت عن أن تكون حجة لهم^٢.

المطلع الثالث

[برائة الله تعالى عن العباد منوطة بمحبة العباد الباطل]

كما أن ولاء الله للعباد منوط بولائهم إياه، فكذلك برائته تعالى عنهم منوطة بمحبتهم الباطل، فالمراد هاهنا على حسب الوزن: إن الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت صاروا مبعدين مطرودين عن الله ملعونين مستوجبين للنار خالدين فيها.

ودليل ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله﴾ (البقرة: ٢)؛ لأنه لو فسرنا الطاغوت بالأصنام فأنها عن الولاة والمحبة، وإن حملنا على الشيطان أو النفس فأنهم الأعداء لا الأولياء وإن حملنا على الرؤساء والمتقدمين فإن لهم فراغة عن ولائهم ومحبتهم، وإن كانوا يقطعون الطريق عليهم ويمنعونهم عن الاسلام ويدعونهم الى الكفر، فهذا من العداوة لا من الولاة، فثبت أنهم أولياء الطاغوت لا العكس. ولهذا الفرق ذكر الأولياء بلفظ الجمع والطاغوت بلفظ المفرد كما مر. ولما كان في حق المؤمنين الولاة والمحبة من الله تعالى ابتداءً - لا منهم - قال سبحانه:

١. تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ١٦٥

٢. تفسير الرازي، ج ٧، ص ٢١

﴿اللّه ولى الذين آمنوا﴾ دليله: ﴿يحبّهم ويحبّونه﴾ (المائدة: ٥): ٤٥) بدأ بمحبّته إيّاهم .
 وأمّا قوله: ﴿يخرجهم من النور الى الظلمات﴾ ، فليس لكلّ طاغوت قدرة بالحقيقة على
 اخراج أحد من النور الى الظلمات ، كما ورد عن النبي ﷺ: «بعث الشيطان مزيناً وليس اليه
 من الضلالة شيء»^١ . وإتّما نفوس الانسان تميل الى ما يلائم هواها وشهوتها ، فتسكن فيها
 ولاها ومحبّتها ، فيتمنى نيل مرادها وحصول مرامها من شيء أو شخص أو شيطان أو صنم
 يتشبث بذلك ويتعلّق به ويتولّاه ، ويجعله طاغوتاً يشغلهم عن اللّه تعالى وطلب القرب منه
 و الارتقاء الى عالم الروحانيين و جنة المقربين .

لهذا ينسب اللّه الاخراج اليهم بقوله: ﴿يخرجونهم﴾ لكونهم منشأ للخروج بوجه ما ،
 فيكون نسبة الاخراج اليهم من باب نسبة المعلول الى آلة الفعل ، كقوله تعالى حكاية عن
 دعاء خليله على نبينا وعليه السلام: ﴿واجنّبني وبنّي أن نعبد الأصنام ربّ إنهنّ أضللن
 كثيراً من الناس﴾ (ابراهيم: ١٤): ٣٦ ، فالناس بواسطة محبّتهم وعبادتهم ضلّوا عن سبيل اللّه لا
 باضلالهن ، وكذلك الكفار بتوليتهم الطاغوت اخرجوا من النور .

المطلع الرابع

فى معنى «النور» هاهنا

اعلم أنّ معنى النور فى هذا الموضوع غير معناه الذى قد مرّ ، فإنّ معنى الاية : يخرجونهم
 من نور الروحانيّة والايمان الفطرى المشار اليه بقوله ﷺ: «كلّ مولود يولد على
 الفطرة»^٢ أى : فطرة الاسلام - الى ظلمات الصفات النفسانية والبهيميّة والسبعيّة ، ظلمات
 بعضها فوق بعض و دركات بعضها تحت بعض ، الى أن تكدرت الأرواح وأظلمت بهذه
 الصفات وتخلقت النفوس الأرضية واتّصفت بصفاتنا .

فكما أنّ النفوس إذا تنوّرت بنور الايمان و المعارف و الأخلاق الروحانية ، وعلت الى
 عالم الأرواح و أعلى عليين القرب مع كونها سفليّة فباكسیر طاعة الشرع والمجاهدات
 الدينية تصير بصفة الهلويات وتطير بأجنحة الروحانيين ، وتدعى بنداء ﴿يا أيّتها النفس
 المطمئنّة ارجعى الى ربّك راضية مرضية﴾ ، فكذلك الأرواح العلوية لما اتّصفت بصفات

١ . الجامع الصغير ، ج ١ ، ص ٤٨٧ ؛ تفسير السمعى ، ج ١ ، ص ٤٨٠

٢ . الكافى ، ج ٢ ، ص ١٣ ، ح ٣

النفس الأمانة وانقلبت جوهرها النورانية باكسير الطبع الحيوانى ظلمانية، أمرت بالهبوط الى أسفل سافلين البعد والطرْد، دليله قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم﴾ بحسب روحه الذى هو من عالم النور، ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾، بافساد الاستعداد الروحانى بالكفر ومتابعة الهوى والطاغوت ﴿إلا الذين آمنوا﴾ (التين: ٩٥): (٤-٦)



شكّ و تحقيق

[فى بيان عالمى الأمر و الخلق]

ولك أن تقول: إن الانسان بحسب أصل فطرته و أول خلقته لا يخلوا إما أن يكون نورانياً أو ظلمانياً، فان كان الأول فما معنى قوله تعالى: ﴿يخرجهم من الظلمات الى النور﴾ حيث لم يكن فى ظلمة أصلاً- لا بحسب الواقع ولا بحسب الفطرة الأصلية كالمؤمنين الذين ما كانوا كفاراً قط؟ وإن كان الثانى فما معنى قوله تعالى: ﴿يخرجونهم من النور الى الظلمات﴾ فنقول: اعلم أن الانسان لكونه مركباً من عالمى الأمر والخلق، فله فطرتان: إحداهما: روحانى نورانى علوى من عالم الأمر وهو الملكوت الأعلى، وثانيتها: نفس ظلمانية سفلية من عالم الخلق، ولكلّ منهما نزاع وشوق الى عالمه. فقصد الروح وميله ورغبته وشوقه أبداً الى عالمه وهو جوار ربّ العالمين ومصاحبة المقدّسين، وميل النفس وقصدها الى عالمها وهو أسفل السافلين وغاية البعد عن الحق.

وبين النفس والروح تجاذب وتنازع وتقابل وتقاوم، كلّ منهما يريد أن يسخر صاحبه ويستخدمه ويستعبده فى تحصيل مآربه ومطالبه.

ولكلّ منهما أولياء و جنود: فولى الروح هو الله، و جنوده أحزاب الملائكة- وهى المعارف والأخلاق الحسنة و القوى الروحانية - و ولى النفس الطاغوت، و جنوده الجهالات و الصفات الذميمة والقوى النفسانية، والمحاربة والمطاردة قائمة بينهما فى معركة القلب الانسانى الى أن يفتح القلب لأحدهما فيكون له الحكم والغلبة فى الانسان، فيتمكّن ويستوطن فى قلبه ويجعله عشالة.

فان كانت الغلبة لحزب الله بعلاّمة يعرفها أرباب القلوب فى أنّه خلق للجنة لسابق التقدير وسابق القضاء، فيكون الله متولّى أمره ومخرجه من الظلمات - التى هى الدواعى النفسانية بحسب فطرة النفس - الى نور العرفان بتوفيق الطاعات وفعل الخيرات.

وإن كانت الغلبة لحزب الشيطان لكونه خلق للنار فيسّر له أسباب المعصية لحكمة الهية ومصالحة قدرية يعرفها أهل الله، فيكون الشيطان وجنوده أوليائه وأحبابه ومتولّى أمره ومخرجه من النور الذى كان له بحسب فطرة الروح، المشار اليه بقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» الى الظلمات الدنياوية من الشهوات واللذات ولا يرغبهم الطاغوت فيها، لقوله تعالى: ﴿يَعْدَهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (النساء: ٤: ١٢٠) يعدهم بالتوبة ويمنيهم بالمعرفة الى أن يهلكهم بهذه الحيل وما يجرى مجراها .

كل ذلك غير خارجة عن قضاء الله وقدره، كما قال: ﴿فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأْتَمًا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الأنعام: ٦: ١٢٥)، وقوله: ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَاغْلِبْ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (آل عمران: ٣: ١٦٠) .

فهو الهادى والمضل، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، خلق الجنة وخلق لها أهلها، وعرف الخلق - وخصوصاً أوليائه - علامة أهل النار وأهل الجنة، فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (الانفطار: ٨٢: ١٤) .

ولما كان الغالب على أكثر الخلق جانب النفس والميل الى الظلمات بعث برحمته الأنبياء صلوات الله عليهم لتزكية النفوس عن ظلمة أوصافها وسوء أخلاقها، وتحليها بحلية أنوار الأرواح ليستحق بها جوار الحق وقربه فى زمرة الأرواح المقدسة، فتزكيتها فى اخفاء ظلمة أوصافها بابداء أنوار أخلاق الروح عليها فى تحليتها بها، وهذا مقام الأولياء مع الله يخرجهم من الظلمات الى النور .

وبعث الشيطان الى أوليائه - وهم أعداء الله - ليخرج أرواحهم من الروح الروحاني الى الظلمات النفسانية، باخفاء أنوار أخلاقها فى البداء ظلمات أخلاق النفس عليها ليستحق بها دركة أسفل السافلين وغاية البعد عن الحق، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، يغفر المطيع بتنوير نفسه بأنوار الروح، و تنوير روحه بأنوار الحق ويعذب العاصى بعقوبة نفسه بنار دركات السعير، وروحه بنار الفرقة والبعد ﷻ واللّه على كل شىء قدير ﷻ من اظهار اللطف والقهر على تركيب عالمى الخلق والأمر .

المطلع الخامس فى تحقيق العلاقة العقلية والملازمة الذاتية بين الكفر وطاعة الشيطان كما يستفاد من هذه الآية

اعلم أن الشيطان - كما حققناه فى كتاب المبدأ والمعاد - جوهر مجرد الذات جسمانى خلقت ذاته من الله تعالى بتوسط العقول الفعالة لأجل جهة امكانية ظلمانية، وذاته وإن كانت شراً محضاً، إلا أنها وجدت بتقدير الله لحكمة قضائية ومصالحة قدرية، فهو وإن كان من شأنه الغلط والتغليط، والضلال والاضلال، إلا أن نسبته الى الملائكة المقررين نسبة الوهم الى القوة العاقلة .

وكما أن وجود الوهم فى العالم الصغير الانسانى منشأ الغلط والكفر والتغليط - إلا أنه ضرورى الوجود فى ادراك الجزئيات، ويدفع ضرره وشره بالحكمة والبرهان النير، فكذلك وجود الشيطان فى العالم الدنياوى ضرورى يوجب تعمير هذه النشأة الدنيوية، ويدفع شره وضره بنور الاسلام وطاعة الشريعة الالهية .

ومن هاهنا ينكشف لدى العاقل البصير أن منشأ الكفر ليس إلا محبة الباطل، ومنشأها ليس إلا ترويح الباطل فى صورة الحق، ولو نظر أحد بعين التحقيق الى حال الانسان عند محبة كل ما يستلذه أو يعتقده أو يطلبه من الأمور الباطلة الزائلة، كالزنا وأكل مال اليتيم وقتل النفس المحرمة، وعداوة أولياء الله، ومحبة أعداء الله، فليس يجده فى تلك الحال إلا زاعماً - لغاية غروره - أن فى ذلك كمالاً وحقيقة، ووجوداً ودواماً، فمالم يعم ولم يصم عن مشاهدة بطلان المحبوبات الباطلة ودثور المرغوبات الزائلة لم يقدم على محبتها وطلبها ومباشرتها .

فمبدأ جميع القبائح يرجع الى ترويح الباطل فى صورة الحق، فالانسان فى هذا الترويح يتبع الشيطان وصار عقله مقهوراً لوهمه عند ادعائه له فى هذا الترويح والتدليس، وكل من كفر بالله وآياته فصار من أتباع الشيطان، ومحبيه فى هذا التغليط من الوهم للقوة العاقلة لصيرورة عقله مدعناً لوهمه .

و الوهم من جنود الشيطان؛ لأن فعله الاغواء وتزيين الباطل وترويجه فى صورة الحق، وتابع التابع للشىء تابع لذلك الشىء . والتابع للشىء محب له، فثبت ما ادعيناها



من أن الكفر منشأه ولاء الشيطان، بإضافة المصدر الى المفعول - كما حققناه .
ومن هاهنا يعلم أن ابليس وإن كان أصله من الملك إلا أنه لم يكن إلا منافقاً مغالطاً
جاهلاً كافراً، وما زعمه بعض الجماهير أن الشيطان كان من أعلم العلماء، فكلامه مزيف
سخيف، وكأنهم لم يفرقوا بين العلم و المغلطة، ولا بين الحكمة والسفسطة، وخصوصاً
على مذهب من يمنع الاحباط كما ذهب اليه أصحابنا الامامية - رضوان الله عليهم - .
ومن الدلائل على سبق كفره قوله تعالى: ﴿كان من الكافرين﴾ (البقرة: ٢) : ٣٤، ومما يؤيد
ماذكرناه من أن ابليس كان كافراً في أول الأمر ما حكاه محمد بن عبدالكريم الشهرستاني
في أول الملل والنحل^١ عن شارح الأناجيل الأربعة شبه مناظرة بين ابليس والملائكة بعد
الأمر بالسجود:

قال ابليس - لعنه الله - : إني سلمت أن البارئ تعالى الهى و اله الخلق، عالم، قادر،
حكيم، إلا أن لى على مساق حكمته أسئلة :
الأول : أنه قد علم قبل خلقى أى شىء يصدر عنى، فلم خلقتنى؟ وما الحكمة فى خلقه
إيأى .

الثانى : إذ خلقتنى على مقتضى ارادته و مشيئته فلم كلفنى بمعرفته و طاعته؟ و ما الحكمة
فى التكليف بعد أن لا ينتفع بطاعة و لا يتضرر بمعصية و كل ما يعود الى المكففين فهو
قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف .

الثالث : إذ خلقتنى كلفنى فالتزمت تكليفه بالمعرفة والطاعة، فأطعت وعرفت فلم كلفنى
بطاعة آدم والسجود له؟ و ما الحكمة فى هذا التكليف على الخصوص؟ فاذ لم أسجد فلم
لعننى وأخرجنى من الجنة وأوجب عقابى مع أنه لا فائدة له فى ذلك، و لى فيه أعظم الضرر؟
الرابع : ثم فعل ذلك فلم مكنتى من الدخول فى الجنة ومن وسوسة آدم بعد أن لو منعنى
من دخول الجنة استراح منى آدم وبقي خالداً فى الجنة .

الخامس : إذ خلقتنى وكلفنى عموماً وخصوصاً و لعننى ثم طرقتنى الى الجنة وكانت
الخصومة بينى و بين آدم، فلم سلطنى على أولاده حتى أراهم من حيث لا يروننى، وتوثر
فيهم وسوستى ولا يؤثر فى حولهم وقوتهم، وما الحكمة فى ذلك بعد أن لو خلقهم على
الفطرة دون من يحتالهم عنها، فيعيشوا طاهرين سامعين طائعين مطيعين كان أحرى بالحكمة .

والسادس : سلمت هذا كله ، فلم إذا استمهلته أمهلني ؟ وما الحكمة في ذلك بعد أن لو أهلكني في الحال استراح الخلق مني وما بقى في العالم شرراً؟ أليس بقاء العالم على نظام الخير خيراً من امتزاجه بالشر؟

فقال شارح الأناجيل : فأوحى الله الى الملائكة قولوا له : «أما تسليمك الأول - إنني الهك واله الخلق - فغير صادق ولا مخلص ، إذ لو صدقت إنني اله العالمين ، ما احتكمت على بـ «لم» ، فأنا الله الذي لا إله إلا أنا ، لا أسئل عما أفعل والخلق مسئولون ، هذا مذكور في التوراة ومسطور في الانجيل .

وهذه الشبهات بالنسبة الى أنواع الضلالات كالبدور ، وليست تعدوها عقائد فرق الزرع والكفر ، وإن اختلفت العبارات وتباينت الطرق ، ويرجع جملتها الى انكار الأمر بعد الاعتراف بالحق والى الجنوح الى الهوى في مقابلة النص ، ولا جواب عليها بالتحقيق إلا الذى ذكره الله تعالى .

فاللعين لما عقله الوهماني على من لا يتحكم عليه العقل ، لزمه أن يجرى حكم الخالق في الخلق ، أو حكم الخلق في الخالق ، فالأول غلو كالحيلولية وكالغلاة ، والثاني تقصير كالمشبهة - وصفوا الخالق بصفات الأجسام - وكالخوارج ، نفوا تحكيم الرجال وقالوا : لا حاكم إلا الله ، كقوله : ﴿ءأسجد لبشر خلقته من صلصال﴾ لا أسجد إلا لك فالشبهات كلها ناشية من اللعين ، وتلك فى الأول مصدرها ، وهذه فى الأخيرة مظهرها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ (البقرة: ٢) : ١٦٨ وشبهه النبى ﷺ كل فرقة ضالة من هذه الأمة بأمة ضالة من الأمم السافلة ، فقال : «القدرية مجوس هذه الامة»^١ و «المشبهة يهود هذه الأمة»^٢ و «الغلاة نصاراها» وقال ﷺ جملة : «لتسلكن سبيل الأمم قبلكم حذو القذة بالقذة بالقذة»^٣ والنعل بالنعل ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»^٤ .

١ . التوحيد للصدوق ، ص ٣٨٢ ، ح ٢٩ ؛ مستدرک الوسائل ، ج ١٢ ، ص ٣١٧

٢ . الملل و النحل ، ج ١ ، ص ٢٠

٣ . قوله : «القذة بالقذة» ، القذ بضم القاف وفتح الذال ريش الهم واحدتها قذة بضم القاف ، يقال : حذو القذة بالقذة إذا تساويا فى المقدار حيث يقدر واحدة كل منهما على قدر صاحبتهما و تقطع ثم يضرب به مثلاً لشيئين يستويان و لا يتفاوتان أصلاً . شرح

أصول الكافى ، ج ٦ ، ص ٢٠٥

٤ . نفس المصدر

وأما الزاعمون بأن إبليس كان مؤمناً ثم كفر بعد ذلك، فقد اختلفوا في توجيه ما ذكرناه من قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢: ٣٤)، فمن قائل معناه: كان من الكافرين في علم الله - أي كان عالماً في الأزل بأنه سيكفر - فصيغة كان متعلق بالعلم لا بالمعلوم. ومن قائل: إن «كان» بمعنى «صار».

وقيل: لما كفر في وقت معين بعد أن كان مؤمناً، فبعد لحظة يصدق عليه أنه كان من الكافرين، وإنما حكم بكفره على هذا القول الثاني لاستكباره واعتقاده كونه محقاً في ذلك التمرد بدليل قوله: ﴿أنا خير منه﴾ (الأعراف: ٧: ١٢) وإلا فمجرد المعصية لا يوجب الكفر عندنا وإن كانت كبيرة، وكذا عند المعتزلة وإن خرج الإيمان لم يدخل في الكفر. نعم، عند الخوارج الكبيرة موجبة الكفر على الإطلاق.

المطلع السادس

في توضيح الفرق بين محبة الله و محبة الشيطان

اعلم أن المحبة نوعان بحسب المحب والمحبوب: محبة هي من صفات الانسان بحسب طبيعته البشرية - وهي من هوى النفس الأمارة بالسوء، ومحبة هي من صفات الحق، وهي من آثار الارادة القديمة الالهية التي اقتضت خلق العالم بما فيه، كما قال تعالى: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»^١.

وقال بعض الحكماء: «لولا عشق العالی لانطمس السافل»^٢، فمن وكل الى محبة النفسانية تعلقت بما يلائم هوى النفس من أصناف الأصنام التي ينحتها الشيطان، ليسخر بها النفوس ويجعلها من جنوده المعادية المنازعة لجنود الرحمن، و جنوده أهل الدنيا المحيين لشهواتها وزهراتها سواء كانوا متسمين بالاسلام أو بالكفر، إذ لافرق عند أرباب الحقيقة بين عبدة الأصنام وعبدة الدنيا.

فكما أن الكفار بعضهم يحبون اللات ويعبدونها، وبعضهم يحبون العزى ويعبدونها، كذلك أهل الدنيا بعضهم يحبون الأموال ويعبدونها، وبعضهم الأولاد ويعبدونها، و بعضهم يحب غير ذلك، كما قال سبحانه: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾ (البقرة: ٢: ١٢٦).

١. مستدرک سفینه البحار، ج٩، ص١٩٣؛ كشف الحفاء، ج٢، ص١٣٢، ح٢٠١٦

٢. المبدأ و المعاد، ص٢٢٧



ولهذا أعلم الله عباده عن فتنة هذه الأشياء وحذرهم عنها بقوله: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ (التغابن، ٦٤: ١٥) وبقوله: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم﴾ (التغابن ٦٤: ١٤) يعنى: فاحذروهم عن محبتهم، لأن محبتهم يمنعكم عن محبة الله، وهو الحبيب وإنهم العدو، لأنهم من توابع ما هو عدو بالاصالة - وهو الهوى والطاغوت - .
وقال تعالى فى موضع آخر فى حق الذين ستروا أنوار روحانيتهم ومحبة الله بظلمات صفات نفسانيتهم من هوى النفس وجحود الحق وانكاره وحب الشهوات: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين﴾ - الى قوله - ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ (آل عمران ٣: ١٤)

يعنى: ذلك متمتعات أهل الدنيا، والذين يأكلون ويتمتعون بها كما تأكل الأنعام ويتمتع بها فالنار مثوى لهم، ولخواص الله المقبولين عنده بقبول العناية، المجذوبين لديه عن شهوات نفوسهم والطبايع الحيوانية بجذبات الهداية الربانية عنده حسن المآب، لدوام ابتهاجهم بنور الحق ومشاهدة صفات جماله وجلاله، ومن وكل الى محبة الله وكان فى الأزل أهلا لها فما وكل الى محبة النفس وهواها، بل جذبته العناية الأزلية ونظمته فى سلك الكناية المذكورة فى بشارة «يحبهم ويحبونه»، فأنها لا يتعلق بغير الله، لأنها من عالم الوحدة فلا يقبل الشركة، كما قال الله تعالى: ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ (البقرة ٢: ١٦٥).

ومما وقع فى الفرس تفتننا لهذا المعنى حيث قيل:

بلى سلطان معشوقان غيور است ز شركت ملك معشوقيش دور است
نمى خواهد ز انجام و ز آغاز در اين منصب كسى را با خود انباز
و ذلك لأن أولياء الشيطان أحبوا الأنداد بمحبة فانية نفسانية وأحباء الله أحبوه بمحبة باقية ربانية، كما قيل شعراً:

قد طال الى لقائكم أشواقى و الهجر و ما أراق من آماقى
لو قطعنى الفراق ارباً ارباً فى المهجة حبكم كما هو باق
بل أحبوه بجميع أجزاءهم الفانية والباقية كما قيل:

الشوق أكثر أن يختص جارحة كلى اليك على الحالات مشتاق

ولهذا احترزوا عن محبة غير الله، إذ لم يبق فيهم موضع محبة الغير، كيف و محبتهم تمنع عن محبة الله، وهو الحبيب الأول، وإنهم العدو، فمن أحب الله يرى ماسواه بنظر



العداوة، كما كان حال الخليل عليه السلام فقال: ﴿فأنهم عدوّ لى إلّ ربّ العالمين﴾ (الشعراء: ٢٦): (٧٧).
فكما أنّ لأرباب النفوس بغلبات الشهوات النفسانيّة حظوظ منبعثة من دركات الجحيم -
من النساء والبنين والذهب والفضّة والخيل والأنعام والحراث - على عدد أبوابها السبعة ودركاتها
التي كلّها محفوفة بالشهوات كما قال عليه السلام: «حفت النار بالشهوات» لكلّ دركة شهوة لها سبعة
أبواب لكلّ باب جزء مقسوم، منهم يتلذذون بها عاجلاً ويصلونها يوم الدين آجلاً، كما
قال: ﴿إنّ الفجّار لفي جحيم﴾ - يعني الآن عاجلاً - ﴿يصلونها يوم الدين﴾ - يعني غداً آجلاً -
﴿وما هم عنها بغائبين﴾ (الانفطار: ٨٢): (١٤-١٦) فكذلك لأرباب القلوب بغلبات أوصافها
الروحانيّة وجذبات عناياتها الربانيّة حظوظ من درجات الجنان ونعيمها عاجلاً ثمّ يدخلونها
آجلاً، كما قال سبحانه و تعالى: ﴿إنّ الأبرار لفي نعيم﴾ (الانفطار: ٨٢): (١٣) نعيم الآثار و
الأفعال، وأمّا نعيم الذات والصفات فأشار إليه بقوله: ﴿واللّٰه عنده حسن المآب﴾ (آل عمران
٣): (١٤) وبقوله تعالى: ﴿اللّٰه يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ (الشورى: ٤٢): (١٣).

المقالة التاسعة عشرة

في قوله سبحانه: ﴿أولئك أصحاب النار﴾

وفيه البصائر:

البصيرة الأولى

في اللفظ

اسم الإشارة فيه يحتمل أن يرجع الى الكفار والطواغيت جميعاً، فيكون زجراً للكلّ
ووعيداً، لأنّ لفظ «أولئك» إذا كان جمعاً وصحّ رجوعه الى كلا المذكورين وجب رجوعه
اليهما معاً، لكنّ إلّا رجح عندي أن يكون راجعاً الى الكفار خاصة، ويكون المراد من
أصحاب النار أصحابها أصالة وجبلة - وهم النفس والشيطان والطاغوت -، فيكون معنى
الاية: أرواح الكفّار مع أصحاب النار؛ بتقدير المضاف هم فيها خالدون. أى: معهم فيها
خالدون.